(١)

لمحـــة عامـــة

بلغت كتابة القصة غايتها فى فن مارسيل بروست الفرنسى عندما فرغ من وضع كتابه « البحث عن الزمن المفقود » ، " A la recherche du temps perdu " لأنه تعمق فى أغوار علم النفس ، وزحف على العقل الباطن حتى استولى على حصونه وقلاعه وبروجه المظلمه الغامضة ، فأنطقها ورفع الأقنعة السبعة عن أسرار الحياة ، وغاص فى سبيل تلك المغامرة بحور الأدب والفن واللغة ، وأخرج ما استطاع من كنوز الدرارى الدفينة ، وعاد الى عالم الكتابة الأرضى كما يعود الغواص من قيعان المحيط ، محملاً بالآلىء ، وقد أشرف على الهلاك .

ولم يكن القراء فى القارات الخمس ، ولا النقاد فى حواضر أوروبا وأمريكا يدركون ، ولا المنجمون يدرون أو يتكهنون بأن نجماً آخر قد أشرق نوره فى أفق الأدب واللغة والفن ، وأن هذا النجم المشرق من غرب أوروبا – وهو ليد أمة مظلومة مغلوبة على أمرها

مهيضة الجناح ، ذليلة الجانب ضربت عليها ذلة المسكنة ، وهوان الاستعمار والاستعباد - سيطلع فى الأفق الأوروبى ، ويصبح كوكباً لامعاً بل قمراً منيراً بل شمساً تخطف بنورها الأبصار ، وسوف يفوق بريقه والتماعه وإشعاعه كل من سبقوه فى الأدب والفن واللغة، ولاسيما فى أدب القصة . وأن مارسيل بروست وغيره قد أمسوا بعده عيالاً عليه ، وأطفالا بالنسبه له ، إنه مارد جبار وعملاق وجبل شامخ وبحر عميق ، بل محيط المحيطات فى الأدب والفن واللغة وفهم الحياة ، وتصويرها ونقدها وتحليلها .

هذا هو جيمس جويس مؤلف كتاب عولس ، المتوفى سنة ١٩٤١ بعد حياة كلها تعذيب وتشريد ومطاردة وكفاح وآلام واضطهاد فى وطنه وفى سائر الأوطان التى حط فيها رحاله . ومايزال جيمس جويس مجهولا فى الغرب والشرق إلا من القلة النادرة الذين يطيقون قراءة كتبه وأدبه وأسلوبه ويصبرون عليها .

واعلمْ أرشدك الله وإيانا أن كل ما تقرأه مكتوباً عنه عند العرب والافرنج ، فى المجلات والصحف والكتب ، هو تحسيس ومحاولة ونقل وتقليد واصطناع ومفاخرة ، ماعدا الذى كتبه القاضى جون ولزى الأمريكى الذى أصدر حكمه فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٣٣

بإباحة طبع كتابه ونشره بعد مصادرته ومنعه وإحراقه من سنة ١٩٢١ الى صدور هذا الحكم الحاسم العادل قبل وفاة المؤلف بسبع سنين ، لأن القاضى النابه اضطر لقراءة الكتاب من أوله لآخره مرتين ليصدر الحكم العادل فى حق الكتاب وصاحبه .

فما أقل عقل الذين يحاولون أن يفهموا جيمس جويس دون أن يقرأوا كتابه ، وما أشد غفلة الذين يكتفون بقراءة نبذة لقيطة أو مقالة مفتعلة ، يحمل كاتبها على الرجل بتهمة المخالفة للدين والأخلاق الفاضلة ، أو الطعن فى دولة قوية بينها وبين أمته ثأر .

لهؤلاء نقول ليس فى سبيل الاطلاع على الأدب الصحيح وإدراكه على حقيقته معجزات ولا كرامات ، وليس طريق الدرس والفهم لهذه الأعجوبة الأدبية الفذة مفروشاً بالورد ، بل لابد من التعب والسهر ومداومة الدرس ، حتى يأتى القارىء الناقد على آخر كتاب عولس وحتى يفهمه ويهضمه ، فإنما لذة الأكل تكون بعد تحريق الأيدى والانتظار الطويل والتعب العنيف .

وبعد فهذا كتاب واحد لا عدة كتب ، والعناد الذى يبذله الراغب فى درسه المشوق الى فنه لن يتكرر ، والتعب الذى يقضيه لن يذوقه مرتين ، ولكن الشبع ، ولكن الطعم ولكن المسرة التى

تحوزها بعد قراءته لاتزول من نفسك وعقلك أبداً .

وحرام على من يعيش فى هذا الزمان ويعرف اللغة الانجليزية معرفة حسنة أن يحرم نفسه من قراءة هذا الكتاب ، بل إن هذا الكتاب خليق بأن يتعلم الرجل فى سبيل قراءته تلك اللغة إن كان يجهلها ، فإنه كفيل بحسن جزائه على كل ما أنفق من جهد ومال وأيام فى سبيل الوصول اليه .

إن هذا الكتاب متحف بل كنز بل مدينة ، بل كوكب ، وإن وصف المتحف والكنز والمدينة والكوكب لايغنى عن رؤيتها قطعة قطعة ومكاناً مكاناً ، وركناً ركناً ، وصفاً صفاً ، بل شعاعاً شعاعاً فإن فى دقائق المخلوقات ولا سيما مخلوقات العقل العبقرى وحياً لايصفه القلم واللسان ، وقد تفتن العالم قطعة فخار أو مرمر ولا أقول درة فى تاج فيجن بها ويعمى عما فى المتحف أو الكنز أو التاج أو المدينة ، كما حدث فى متحف يونانى رومانى زرته عرضاً فرأيت فيه رأس فتاة مجدوعة الأنف- وأسفاه- مغمضة العينين ، ولكننى لا أنسى ما حييت الجمال الإلهى الذى يشع من فتنتها ، وهكذا كانت حالى فى الكتب والمتاحف والمدن ، بل فى هذا العالم الأرضى أطوف ما أطوف وأقرأ ما أقرأ طوال الأيام والليالى ، فيقع

نظرى على شىء واحد فأهيم به وأحلم كما همت بالجوكوندا وتمثال الزهرة فى باريس ووادى الأرنو فى فلورنس ، ومحراب المسجد الأموى فى دمشق وهكذا ..

هذا الكاتب جيمس جويس الايرلندى أصلاً الكاثوليكى ديناً ، العالمى موطناً، الهارب من لكاعة مواطنيه ، الفار من ظلم حاكميه ، الثائر على خمول والديه ، الناقم على الناشرين والطباعين والوراقين والسراقين الذين استغلوه ، المحتقر لناقديه والحاقدين عليه ، أحببته قبل أن أقرأ كتابه ، فلما قرأته فى مدى أربع سنوات على شاطىء البحر ، وفى سكون الليل وفى قيظ النهار ، وفى وحدة غرفتى ، استغنيت به عن كل كتاب فى الأدب والفن فأحببت مؤلفه مائة مرة.

إنه أحد ثلاثة أو أربعة فى تاريخ الأدب الإنجليزى ، وهو بلا ريب فذ من أفذاذ العالم فى كتابين ، الأول عولس الذى لم يكتب مثله غربى ، كما قصر عنه الكثيرون من نوابغ العالم أمثال شكسبير وجوته وملتون ، لأنهم لا يملكون زمام لغتهم كما ملكه هو ، أما الثانى فهو « حياة الفنان فتى » وهو ليس موضوع بحثى.

ومن درس الكتاب الأول (عولس) يقول تارة مع تورك Turk

فى كتابه على العبقرية « النبوغ موهبة ربانية ، يعطيها الله من يشاء » .

ويقول طوراً مع بوفون « ليس النبوغ إلا صبراً طويلا » .

ويقول العاجز كاتب هذه الأسطر « النبوغ موهبة إلهية يهب الله صاحبها الصبر الطويل حتى ينجز عمله ويشعر بلذة العمل أثناءها » .

وقد قال جويس عبارة عجيبة « على من يريد أن يفهمنى أن يقف حياته على دراسة كتبى » ، فلما قرأتها قبل أن أقرأ كتاب عولس ، داخلنى ريب فى غروره وانخداعه بنفسه وامتلائه بذاته وكبريائه ، ولكنى بعد أن قرأت تمنيت أن أعطى من الأعمار ما تمناه المتنبى لسيف الدولة ، فأدرس جويس عن أهل مصر جميعاً ، لأعرفهم بأخيهم وابن عمهم هذا .

لم يكن فى اللغة الانجليزية أو غيرها من آداب أوروبا أدب حى كما نفهمه اليوم ، حتى ظهر كتاب عولس وإننى لأضحك ساخراً كما ضحك القاضى الأمريكى (الذى مايزال فى نظرى العمدة والثقة الوحيد ، لأنه قرأ الكتاب مرتين مرغماً مضطراً بحكم صنعته وواجبه وضميره) ، أضحك ممن يعد « عولس » كتاباً بذيئاً ،

فيؤاخذ الرجل على حرية فكره ، ومواجهة الحقيقة ، والجهر بكل مايقوله الناس ويشغل بالهم ، فى صحوهم ونومهم .

فلتقرأوا عولس قراءة فنان إن أردتم تقديره وتعظيم مؤلفه ، ودع سواك يقرأه قراءة البلهاء المنافقين ، إن أردت أن تصبّ على رأسه جام غضبك وغضب المرائين والمتنطعين والخشب المسندة .

فسيّان عند جويس حياً وميتاً وعند المعجبين به ممن فهموه هذا أو ذاك ، ولكن أهل الفطنة والذوق السليم ، يضحكون منك إن رأيت فى النظر الى تمثال فينوس (الزهرة) الذى ذكرته معصية تلقى بك فى سقر بينا أرى ويرى غيرى فى النظر الى الحقيقة العارية ثواباً وتمجيداً لله وللعبقرية ، وتسبيحاً وحمداً على نعمة الخلق والتصوير تدخلنى الجنة .

والجمال والفن الرفيع والأدب الحى عندى رزق كريم ونعم ومنح ربانية سواء أكانت وثنية أم مسيحية أو إسلامية .

ثم إنى أضحك ساخراً ممن يعتبر عولس كتاباً فيه إلحاد وهرطقة ، لأن جويس خلع نير العبودية الجيزويتية ، لا العقيدة المسيحية الصحيحة ، فصرح فى نبذ يسيرة نادرة عن الصراع الذى نشب فى سريرته بين الشخصية الفنية المتحررة والشخصية

الدينية المكبوتة ، وفرحه بالانتصار على القوة الغاشمة ، والمؤامرة العظيمة الغادرة التى كان يدبرها عليه فى صباه عميد كلية بلفدير الجيزويتية الايرلندية ، لانتهاب روحه واستخلاصها لخدمة الكهنوت.

فهذا المظهر الإلحادى ، الذى بدا فى بعض نبذ عولس لا يدل على ردة جويس ، ولكن يدل على نضجه الروحى ، وكفاحه فى طريق الدين الصحيح من ناحية وفى طريق الفن من ناحية أخرى .

وإنى لتعرونى هزة ، كلما فكرت فى إمكان نجاح مؤامرة بلفدير الكهنوتية ، وضياع ذلك الفنان النابغ على الدنيا ، إذا تغلب الدين على الفن فى شخصية جويس ، وكان هذا ممكناً بل مرجحاً لولا أن عميد الكلية كان متعصباً ومتشدداً لايفهم الطفولة ، ولايعذر النفس الناشئة فشاء القدر أن يكتب جويس وهو تلميذ حدث موضوع إنشاء ، فيه بعض التحرر والانطلاق ، فاتهمه العميد بالكفر وألزمه «بالاعتراف» بكفره ، ثم هدده بالويل والثبور ووصف له فى خطبة منبرية كنائسية أهوال الجحيم التى تنتظره وصفاً تقشعر له أبدان الكبار فضلا عن الأطفال ؟! . فتقضى هذه الخطبة الرنانة على مابقى فى نفس الفنان الصغير والأديب الناشىء من

حب الدين والإيمان بالعذراء والمسيح والثقة بالإنجيل ، وهو دين رحمة وحنان وعطف ومودة ، فيعصى جويس ويستكبر ويصيح صيحة باللاتينية حين أبى أن يخدم العرش الإلهى « لن أخدم لن أخدم » « " Non servian Non servian " .

فقضى الكاهن بسيف التعصب الأعمى على روح الدين وذبحها ، ولطخ سيف الشدة بدمها ، فوقع على رأسه ، ونجا الفن الرفيع والأدب العالمى فى نفس العبقرى جيمس ، فانطلقت تلك النفس من قيودها وتحرر العقل من نير الظلم الغاشم ، والتمس الشاب سبيل العلم والأدب فى الجامعة الحرة بعد أن تمرد وثار على ثقافة أمته ، وعلى نهضة إحياء اللغة الأيرلندية التى قام بها رجال فضلاء من مواطنيه يكبرونه سناً واختباراً وتجاريب ، وسعى الى الفرار من الدين والثقافة الأيرلندية والوطن الأيرلندى المكبل بقيود الاستعمار الانجليزى ، سعى الى الفرار ما استطاع سبيلا ، والتمس النجاة فى آفاق أرحب وأخصب وأنور وأبهى فى القارة الأوروبية ، فى فرنسا وإيطاليا وسويسرا مقر الجمال والأدب الصحيح والفنون الرفيعة ، ورشف من مناهلها ثقافة لاتحد بلغة ولا وطن ولا جيل ، وأقبل على التعليم ففشل فى طلب الطب ، ثم أقبل

على اللغات فأتقن عشراً منها قديمة وحديثة وأقدم على الحضارات والآداب العالمية البائدة والحية والمعاصرة ، والشرقية والغربية ، فاستساغها وتمثل ثقافتها وهضمها .

وهذه الصورة الباهرة تجدها فى كتابه الأول « صورة الفنان شابا » The pirtrait of the artist as a young man .

فهذه الثورة لم تذهب بإيمان جويس ، وإن ظهرت بعض آثارها فى كتابه عولس ، فكان يغضب على من يمتهن الدين فى حضرته ، وعلى من يعيب اللغة الأيرلندية أو الجنس السلتى بمسمع منه ، وبقى نادماً طوال حياته لأنه عصى مشيئة أمه المحتضرة ، عندما طلبت إليه أن يركع بجوار فراش موتها ، ويصلى الى الله من أجلها فأبى ، ولكنه شعر بعد ذلك أنه أخطأ فى حقها ، وفى حق حنانها وحبها ، وظل شبح الأم يطارده الى أن لحق بها بعد الخمسين من عمره .

وتجد أثر ذلك الندم الصادق فى كثير من فصول كتابه ، وأغلب الظن أنه كان ندم الابن على ما سببه الحزن لأمه أكثر منه ندماً على عدم الركوع فى صلاته، وإنه لعمرك شىء واحد ، فإن الأم المحبة صورة الله على الأرض ، وقديماً قال رسول الله « الجنة تحت

أقدام الأمهات » ولم تكن مثل هذه العاطفة ببعيدة عن قلب جويس.

هذان هما المأخذان اللذان أخذهما بعض المتنطعين على جويس ، مخالفة الآداب ، والتصريح بأمور يجب فى وهمهم أن تكتم عن جمهور القراء خوفاً على فضيلة الحياء ، أو حذراً من الإباحية والثورة على بعض المظاهر الجيزويتية ، التى تمتّ الى الكثلكة ، لا على جوهر الدين المسيحى نفسه .

وهذان المأخذان قد فحصهما القاضى الأمريكى جون ولزى الذى أصدر حكمه بجواز طبع الكتاب ونشره وانتفاع صاحبه ببعض جهوده ، وقد ضرب القاضى الحصيف العادل باعتراض السخفاء عرض الحائط ، وقال « إن الحرية التى انتحلها جويس تفيد الآداب والفضيلة والدين ، ولا تضر بأحد من القراء ، وإن هذا الكتاب ليس موضوعاً للعذارى ولا مفروضاً على طلاب المدارس ، ولا مصنوعاً للأرامل المتعنتات أو العوانس اليائسات ، إنما هو عمل فنى جليل القدر ، خالد الأثر ، صعب المنال بعيد الغور على أوساط الناس وعلى كثير ممن هم فوق الوسط ، ومن وصل الى درجة من الفهم حتى يملك زمامه ، ويحيط بأدبه لفظاً ومعنى وشكلاً وموضوعاً

وعرضاً وجوهراً ، ويتاح له الوقوف على أسراره ورموزه، من يصل الى هذه الدرجة ، لايخشى على عفته ، أو دينه أو عرضه أو شعوره أو خلقه ، من مطالعته واقتنائه » ، أى أن القاضى الأمريكى الحديث رجع الى قول الإسلام « لا حياء فى الدين » ، ولا حياء فى العلم والأدب والفن ، وأباح القاضى الأمريكى فى الثلث الأول من القرن العشرين لجيمس جويس ما أباحه الدين والعرف والفن لكبار كتاب الأدب العربى وشعرائهم فى القرنين الأول والثانى للهجرة.

إن الذى يقرأ عولس ويدركه إما أن يكون فتى وإما كهلاً ، فإن كان كهلاً فقد فات عهد الغليان والتأثر بالألفاظ والصور الذهنية وتحرر من قيود الحياة الجنسية لكثرة ما قارف من ناحيتها المكدرة ، أو المضعفة أو المملة ، وإن كان فتى قادراً على فهمه ، فهو فى درجة من النضج تحميه وتقيه وتكسبه مناعة لا شك فيها .

أما النساء ، فقد أوتين بحكم غريزتهن من الإدراك والتعمق فى تلك المسألة مالم يصل اليه رجل مهما بلغ علمه ، لأنهن أمهات العالم ، وتكفى الإشارة هنا الى أخلاق مدام ليوبولد بلوم بطل الكتاب الموصوفة بأقصى إسهاب وأعجب أسلوب فى المناجاة الذاتية من الصفحة ٦٩٤ الى آخر الكتاب فى ص ٧٣٥ ، ونعدها

أبلغ وأقوى وأبهر ما كتب فى اللغات الأوروبية قديماً وحديثاً ، فى دلالتها على النفس البشرية ولا سيما نفس المرأة ، فليرجع اليها من يشاء فى نسخه المطبوعة الصادرة سنة ١٩٣٠ بمطبعة شكسبير وشركاه ١٢ شارع أوديون بباريس أو فى مطبوعاته الحديثة فى سنوات ١٩٣٤ ، ١٩٤٢ بنيويورك .

بيد أن جويس لم يكن محروماً من الحب ، فقد تزوج فى العشرين من عمره بفتاة أحبها ، وهى التى صحبته فى أسفاره (قرينته نورا) وولدت له ذكوراً وإناثاً وملأت بيته بهجة وحبوراً ، وسهرت على راحته وسعادته فى وسط بحر خضم من الشقاء والكفاح فى سبيل الرزق والمجد .

ولكن جويس نفسه كان بطبيعته جذاباً للجنس اللطيف ، ومحبوباً من النساء لرقته وحسن عشرته ، وكان مطموعاً فيه منهن ، سواء أكن عذارى أو ثيبات ناضجات ، يعجبن بشخصه وبمرحه وحضور بديهته وبفنه ، وإن كان معظمهن لايدركن كل مايكتب أو يقول ، ومنهن من سارعن الى نجدته بالمال والنوال فى منفاه ، وهو أحوج مايكون للعون ، وفى مقدمتهن « إيدا روكفلر » من أسرة صاحب الملايين الأمريكى الشهير ، ثم ميس واينر صاحبة مجلة

«ايجويست» أمدته بالمال وشجعته على نشر فصول من كتابه فى مجلتها ، وتحملت أذى المحاكمة والمصادرة والغرم والخسران فى سبيل إذاعة أدبه ونشره ، ومنهن من أضفن حب الهوى الى الإعجاب ، وجمعن بين الافتتان به ، وبين التشيع له ، والدعاية باسمه والإشادة بقدرته ومواهبه ، مثل جيرتى ، ومسز كورفيك التى طبعت كتاب عولس على نفقتها فى باريس ، وهى لاترجو من ورائه ربحاً بل تتوقع ضياع المال ، وإتلاف النسخ المصادرة حرقاً أو غرقاً أو تمزيقاً .

وجاءه الحب النسوى طائراً على أجنحة كأجنحة القطا من امريكا عبر المحيط تحمله قلوب فتيات شهيرات بالجمال والأدب ورفعة النسب ، ميس اندروس ، وميس هيب وميس إثيل هارب فقد أحببنه على البعد ، وهمن به هياماً شديداً ، وتكبدن مشقات السفر اليه حتى اجتمعن به ، وأنسن بلقائه ، وهن يعلمن أنه زوج امرأة جميلة ورب أسرة كبيرة .

ولا يمكن أن يخلو هذا السرب من ربات الجمال والحجال والأدب الرفيع ، والمال الوفير ، والنسب العالى من واحدة أو أكثر من ذوات الحياء والخفر والاستمساك بالفضيلة ، كانت تثور على

جويس أو تنفر منه أو تعرض عنه ، أو تكتم هواها لو أنها رأت أو شعرت أو ظنّت أن كتاب عولس يهتك أستار الفضيلة ، أو يخدش أذهان العذارى أو يعدى القارئات بداء من أدواء الرذيلة أو النقص الخلقى ، أو يعرضهن لسوء الظن .

وقد كان الرأى العام الأمريكى فى صفه قبل أن يصدر الحكم فى مصلحته ، ولذا خسرت جمعية أنصار الدفاع عن الفضيلة (!؟!) قضيتها التى رفعتها عليه خسارة مجلجلة فرح لها كل الأدباء فى القارتين ، وأعادت الى ذاكرة النقاد القضية التى رفعتها النيابة العامة على جوستاف فلوبير عقيب نشر كتابه العظيم « مدام بوفارى » بتهمة أنه خدش الحياء وأساء الى نظام الأسرة ورباط الزوجية المقدس ، بوصف الحب المكشوف فى حياة زوجة صيدلى تهتكت فى عشق شاب من الأعيان ، فأصدرت محكمة باريس العليا حكمها بالتبرئة والتهنئة ، وأنبت النيابة العامة على قلة فهمها وعدوانها على كرامة الأديب الكبير ، « أنظر نص الحكم فى آخر كتاب مدام بوفارى » .

فما أحوج المجتمع الحديث الى قاض عادل جرىء يخزى شياطين هؤلاء الأدعياء المغرضين المنافقين والمتظاهرين بالتمسك

بالفضيلة ، وهم يخمعون ويظلعون خلق القدماء فى النود عن الخلال المصطنعة كالجِمَال العُرْج ، ولم تكن جمعية أنصار الدفاع عن الفضيلة سوى جماعة مزيفة من هذا النوع ومن الجمال الجرب التى ترمى الفضلاء بدائها .

ونختم هذه النبذة فى الدفاع عن جويس بالكلمة الحكيمة القائلة « كل شىء يعد ظاهراً أو دنساً ، لا بحسب نصه أو لفظه أو معناه ، ولكن بحسب الأذن التى تسمعه ، والذهن الذى يعيه ، فكل معنى يحسب طاهراً نظيفاً للذهن الطاهر النظيف وعلى نقيض ذلك للذهن الملوث القذر » .